

## ملخص البحث الموسوم بـ

### ( حكايات حول عيون الماء في فلسطين )

#### عين زواتا نموذجاً

من المعروف أن الحكاية الشعبية جزء مهم من الأدب الشعبي، وهي تشمل كل ما يحكى أو يروى شفويّاً بين الناس، واعتماداً على ما سبق، فقد حاولت في هذه الدراسة أن أقف عند الحكايات الشعبية المتداولة حول عيون الماء، وقد حصرت الحديث عن هذه الحكايات المتداولة حول عين زواتا؛ وجعلتها في حكايات ثلاثة، وهي:

1 - حكاية البئر الذي ألقى فيه كيس التبّن.

2 - حكاية مغارة الدراويش.

3 - حكاية النبع الذكر.

وقد حاولت ربط هذه الحكايات بالواقع؛ لعلّي أستطيع أن أجد تفسير آلهما.

### حكايات حول عيون الماء في فلسطين

#### عين زواتا نموذجاً

يدخل هذا العنوان في باب المأثورات الشعبية أو ( الفولكلور ) الذي كان ( وليم جونز ثوماس ) أول من وضعه، وذلك عندما اقترح على مالك إحدى الصحف الإنجليزية تخصيص زاوية منها لتسجيل الملاحظات التي ترد حول العادات والمعتقدات القديمة التي كان يمارسها الناس، وقد اقترح مصطلح ( الفولكلور )، ليبدل على دراسة العادات المأثورة والمعتقدات السائدة، وأصل الكلمة من مقطعين ( Folk ومعناها الناس )، ومن مقطع آخر هو ( Lore ومعناها الحكمة ) أو المعرفة، ثم أصبحت تعني معارف الناس أو حكمة الشعب<sup>(1)</sup>.

ومن الواضح أنه لا يوجد تعريف واحد لـ ( الفولكلور ) أو المآثورات الشعبية، بل إن المهتمين في هذا المجال، عرضوا تعريفات عديدة للمصطلح، ومنهم فوزي العنيتل الذي عرّفه بقوله: " إنها المآثورات الروحية الشعبية، وبصفة خاصة التراث الشعبي، وهو أيضاً العلم الذي يدرس هذه المواد "(2).

وعلى الرغم من أن علماء الفولكلور لم يتفقوا على تعريف محدد؛ فإنهم رأوا فيه التراث الثقافي العلمي للشعوب(3).

ومن المعروف أن الأدب الشعبي يضم مجمل الفنون القولية التلقائية التي تعبر عن مشاعر الشعب وأحاسيسه، وتمثل اتجاهاته ومستوياته الحضارية، وتتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل؛ وتشمل هذه الفنون الأسطورة والحكاية الشعبية، والسيرة الشعبية والأغنية الشعبية، والمثل الشعبي والنكات والألغاز؛ ومن سمات الأدب الشعبي أنه يعبر عن نشاط اللاشعور الجمعي للشعب، وهو أدب جمعي، وهو أدب متوارث ومتراكم، ومنتشر ومتداول عبر الأجيال؛ كما أنه يمتاز بالتلقائية والعفوية ... وله وظائف بيولوجية وتعليمية واجتماعية(4).

وما يهمنا في نطاق هذه الدراسة من فروع الأدب الشعبي على وجه الخصوص هو الحكاية الشعبية؛ وهي تشمل كل ما يحكى ويروى شفويّاً بين الناس، واعتماداً على ما سبق سأحاول الوقوف على الحكايات المتعلقة في عين زواتا(5).

ومن خلال تتبع حاجة أهل فلسطين للماء على مدى التاريخين القديم والحديث؛ وذلك بسبب شحها في كثير من الأحيان وعدم كفايتها لسداد حاجتهم الملحة فيما يتعلق بحياتهم اليومية المتعلقة بالشرب وإسقاء المواشي والزراعة، كل ذلك دفعهم إلى التشبث بكل مكان يحتمل أن يجتمع فيه الماء على كثرة أو قلة؛ وقد فرضت قلة الماء على هؤلاء الناس في القرى التي لا يوجد فيها ينابيع دائمة الجريان، أن يحفروا آباراً، لتخزين جزء مما يلزمهم؛ ومن خلال الاطلاع على العديد من مواقع الخرب والقرى المهجورة يلاحظ كثرة الآبار الرومانية، وبعد وجود نبع جار في قرية من القرى نعمة ليس بعدها نعمة، وربما كانت قرية زواتا من القرى القليلة في منطقة نابلس التي حباها الله نعمة وجود نبع جار فيها؛ وقد استغله سكان القرية استغلالاً حسناً، واعتمدوا عليه في زراعة الخضراوات التي شكلت دخلاً إضافياً استفاد منه أصحاب الأراضي المروية في شراء مساحات غير قليلة من أراضي القرى المجاورة مثل عصيرة الشمالية واجنسنية وبسببية وبيت إيبا، وهذا الأمر جعل القرى المجاورة تنتظر بحسد لقرية زواتا.

ونظراً لأهمية عين زواتا ودورها في حياة سكانها كما بينا سابقاً، فقد تناقل الناس فيها وفي القرى المجاورة حكايات حول هذا النبع، خاصة أهالي قريتي عصيرة الشمالية وزواتا؛ وما زلنا نسمع حتى الآن هذه الحكايات تتردد على ألسنتهم، وسأكتفي في هذه الدراسة بالوقوف عند حكايات ثلاثة تتعلق بهذه العين، وهي على النحو الآتي:

### أولاً: حكاية البئر الذي ألقى فيه كيس التبن

يبرر أهالي زواتا امتلاكهم لعين الماء التي تقع في الجزء الشمالي الشرقي من القرية، أن هناك شخصاً من عصيرة الشمالية شعر بالغليظ من أهالي زواتا، لأنهم كانوا يمنعون أهالي عصيرة من الورد إلى العين لأخذ حاجتهم من ماء الشرب وإرواء أغنامهم، لذلك قرر شاب في مقتبل العمر ويدعى كما تقول الرواية ( محمد العريان)، وكان يعرف مكان البئر الذي تتبع منه عين زواتا، وهو يقع ضمن أراضي عصيرة، وهو موجود داخل مغارة، لذلك قرر ( محمد العريان ) هذا أن يتدلى إلى البئر الموجودة داخل المغارة، وأن يفرغ فيه كيس التبن الذي اصطحبه معه، ليثبت لأهالي زواتا، أن أهالي عصيرة هم المالكون الحقيقيون لعين زواتا، والدليل على ذلك أن التبن الذي أفرغ في البئر سحبته المياه في اليوم التالي إلى عين زواتا<sup>(6)</sup>.

أما الحكاية نفسها فيرويها أهالي زواتا على النحو الآتي؛ فيذكرون أن (محمد العريان) الذي نزل إلى البئر ووضع التبن فيه سحبه الماء مع التبن إلى عين الباذان، وعندما لم يعد إلى بيته ذهبت أمه تبحث عنه في البئر الذي داخل المغارة، فأجابها الجان المكلف بحراسة البئر أن محمد العريان ( برقص بالسيفين في الباذان ).

وحتى يبطل أهالي زواتا هذا الادعاء فقد ذكروا أن الأرض التي يقع فيها البئر، هي ملك لشخص من زواتا ورثها من أخواله آل الشولي الذين ينتسب إليهم محمد العريان، وما زالت الأرض تسمى ( عمارة العريان )، وأضافت إحدى النساء التي روت الحكاية أنها تعرف الشخص الذي كان يمتلك ( عمارة العريان )، والتي باعها عندما تزوج، واشترى بثمنها عباءة له، وعصبة للعروس<sup>(7)</sup>.

ومن خلال الحديث مع بعض كبار السن في القرى المجاورة، فقد وجدت الحكاية نفسها تتكرر، وهي متداولة في قرية بيت وزن، إذ يعتقد أهلها أن عين الماء الموجودة في قرية بيت إيبا إنما تخرج من قريتهم، ويستدلون على ذلك بأنهم عندما ألقوا التبن في بئر الماء في قريتهم ظهر التبن في عين بيت إيبا.

ومن الواضح أن الحكاية نفسها تتكرر عند أهالي الناقورة ودير شرف. وهكذا يلاحظ أن القرى الأكثر ارتفاعاً تدّعي أن أصل النبع إنما يكون من أراضيها، لكنه يتسرب إلى المناطق الأكثر انخفاضاً.

ويبدو أن مثل هذه الحكايات ليست أمراً خاصاً بمنطقة معينة، فقد ذكر الدكتور توفيق كنعان حكاية مماثلة عن أحد الحجاج الهنود الذي فقد وعاء في بئر زمزم، وبعد عام جاء إلى القدس، وبينما كان يستحم في حمام الشفا، نشل حارس الحمام وعاءً من البئر، وفي الحال عرف الحاج الهندي وعاءه الذي سقط في بئر زمزم عندما كان في مكة المكرمة، ويضيف كنعان قائلاً: إن بعض المسلمين يعتقدون أن مياه زمزم في مكة تتدفق لتصل الأقطار الإسلامية معطية الفرصة لكل مسلم لشرب مياه زمزم<sup>(8)</sup>.

### ثانياً: حكاية مغارة الدراويش:

وملخص الحكاية أن هناك مغارة تقع على الطريق الموصل إلى العين، وهي محفورة في انحدار يقع في الجبل الذي تقع عليه القرية، ويسمونها الناس (مغارة الدراويش)، حيث يذكر بعض كبار السن، أن هذه المغارة كانت مسكونة بالدراويش الذين تعودوا أن يقيموا الأذكار ليلة كل جمعة، حيث كان المارون في الطريق المحاذية لها يسمعون أصواتاً غير مفهومة.

وهناك آخرون من كبار السن يذكرون بأن الدراويش كانوا يسكنون مغارة أخرى في منطقة أكثر انخفاضاً، وتمر من جانبها طريق أخرى توصل إلى العين، ويذكر هؤلاء أنهم كانوا يسمعون كذلك أصواتاً غير مفهومة تصدر عن المغارة الثانية، وهذا يعني وجود مغارتين تسمع فيهما أصوات الدراويش، والمغارتان تشرفان على الطريقين المؤديتين إلى العين، والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا كان الدراويش يقيمون في المغارتين المذكورتين وليس مخلوقات أخرى كالجان الذي يحرس بئر الماء الذي تتبع منه العين، حيث اتضح في الحكاية السابقة أن أم محمد العريان عندما ذهبت تبحث عن ابنها أجابها الجان أن " محمد العريان برقص بالسيفين في الباذان "؛ فهل يعني ذلك أن طرف النبع الذي يذهب من البئر إلى الباذان محروس بالجان، بينما كان الدراويش يحرسون عين الماء نفسها، حماية لها من الجان، وممن تسوّل له نفسه الإضرار بالعين وعدم الاستفادة منها.

وفي رأيي أن هذا الأمر ممكن جداً، خاصة وأن سجلات محكمة نابلس الشرعية قد ذكرت أن نصف أراضي زواتا كانت وفقاً لأسرة آل البسطامي<sup>(9)</sup>، وأن أحد الولاة قد أوقف على

الشيخ أبي يزيد البسطامي وأقطعه مجموعة إقطاعات ومنها: نصف أراضي قرية زواتا بما فيها العين، وهذا يعني أن أتباع الزاوية البسطامية التي كانت موجودة في موقع مسجد زواتا الحالي كانوا يشعرون أن عليهم حراسة هذه العين من العبث؛ على اعتبار أنها ملك من أملاك الزاوية البسطامية، والدليل على ذلك أن أراضي قرية زواتا ما تزال مسجلة في سجلات الطابو على أنها وقف لأبي يزيد البسطامي، هذا مع العلم بأن الباحث توفيق كنعان قد ذكر أن حكايات الينابيع في فلسطين تذكر أن الينابيع نوعان: نوع تسكنه الأرواح الخيرة، مثل أرواح الأتقياء الذين دفنوا قريباً من الينابيع أو الأولياء الصالحين الذين كانوا يحاولون مساعدة الناس، على العكس من النوع الثاني من الينابيع التي تحرسها أرواح شريرة من الجان والعمالقة<sup>(10)</sup>.

### ثالثاً: حكاية النبع الذكر:

من المعروف عند أهالي القرية أن عيون القرية نوعان: النوع الأول ويدخل في إطاره ( نبع العين ) كما يسميه أهل القرية، وهو دائم الجريان، ولم يسمع من أحد من المتقدمين في السن أن ذكر بأن هذا النبع توقف عن الجريان حتى في السنوات التي تقل فيها الأمطار، والدليل على قوة تدفقه أن هناك بقايا طاحونة مائية كانت تعمل اعتماداً على ماء النبع؛ وقد ذكر لي المرحوم ( محمد صالح أبو نايف ) الذي توفي عام 1989م عن مئة وعشر سنوات أنه عمل في هذه الطاحونة.

أما النوع الثاني من الينابيع فهي الينابيع التي تجري في السنوات غزيرة الأمطار؛ ويزيد عددها عن خمس ينابيع وهي: عين قشة وعين خلف وعين السكر وعين خلة الجوزن وعين الحيات ... لكنها سرعان ما تجف في أوائل الصيف، ولا يبقى منها إلا نبع العين ( عين زواتا )، وقد وصف العارفون بشأن هذه الينابيع النبع الأول وهو ( عين زواتا ) بأنه نبع ذكر، ومن خلال الوقوف عند هذا النبع يلاحظ أن الماء تفور منه فوراً، كأن قذفها للماء من باطن الأرض يشبه قذف ذكر الرجل للمني، ومن هنا جاء الوصف.

أما بقية الينابيع فقد وصفها هؤلاء بأنها ينابيع إناث، أي أنها غير قادرة على العطاء باستمرار، مثل المرأة التي يتعطل عطاؤها بسبب الحيض أو الحمل أو الشيخوخة، لذلك وصفت بأنها إناث.



## الحواشي

- (1) جامعة القدس المفتوحة، المأثورات الشعبية، ط1، 1996م، ص7.
- (2) العنتيل، فوزي، الفولكلور ما هو؟ دار المعارف بمصر، 1965، ص44.
- (3) ذهني، محمود، الأدب الشعبي العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ص29.
- (4) الديك، إحسان؛ مخطوطة في الأدب الشعبي، ص5-7.
- (5) المصدر نفسه، ص9.
- (6) وهي رواية عن الحاج حسين محمد حسين أبو عمشة، وقد قارب سنه الآن مئة عام.
- (7) وهي رواية سمعتها عن الحاجة فاطمة أبو عمشة ( أم شوقي )، وهي في التسعين من عمرها.
- (8) كنعان توفيق، الكتابات الفولكلورية، إعداد موسى علوش، دار علوش للطباعة والنشر، ط1، 1998، 22/1.
- (9) سجلات محكمة نابلس، المجلد 17، ص630، 740-743. والمجلد 18، ص36.
- (10) كنعان، توفيق، المصدر نفسه، ص16-20.